شذرات

في اسكان العشائر النُصف الرُحّل

هي العشائر العربية المُكنّاة « أهل الشاة » ، لمزاولتها حرفة تربية الاغنام ؛ وتمييزاً لها من عشائر البدو الرُحّل « أهل البُلّ » اصحاب قطعان الابل .

والعشائر النصف الرُحّل تُعنى ايضاً بالزراعة ، ولذلك هي اقرب للتحضّر من البدو المحافظين مدى الاجيال على الهيأة الاجتماعيّة الاولى التي تكيّف بها بنو البشر .

والعشائر النصف الرُحّل (وندعوها العشائر المزارعة ونسمي افرادها أعرُبي وعَرَب دفعاً للالتباس) تؤلف الاكثرية الساحقة من سكان الفرات والخابور وهي التي تغذّي تجارة البلاد بنتاج مواشيها وزراعتها ، وتؤدّي القسم الاعظم من واردات الخزينة من ضريبتي الاغنام والاعشار . .

* * *

وقبل الخوض في موضوع الاسكان الدقيق يُستحسن الشروع بشرح كيفية معيشة العشائر المزارعة المتوطّنة نوعاً ما على ضفاف الفرات والخابور .

فاهل الشاة متحدرون اصلاً من البدو الرُحّل الذين لم يبقَ لديهم ، في غابر الازمان ، من وسائل المنعة والقوة ما يدعهم يثابرون على الحلّ والترحال لمسافات شاسعة ، فاضطرّ اجدادهم بتأثير ضغط وسطوة العشائر البدوية الشديدة البأس الى الالتجاء الى اطراف البادية والاحتماء بالمواقع المنيعة القريبة من الانهر .

واذا بتضييق مجال مراعيهم المألوفة يحملهم على ترك تربية قطعان الابل الضرورية للتجوال البعيد ، والنزوع الى تربية الاغنام الوضيعة التي تتناسب مع حالتهم الجديدة اغتناماً لفائدتها .

ثم ان وادي الفرات — كوادي النيل — يُعطي بدون مشقة حاصلات عظيمة شجّعت البدوي المقصى عن البادية على استثمارها لسهولة منالها لانه كسول بفطرته قليل النشاط يعتبر حراثة الارض حقارة :

١ً ــ لقد كانت المزروعات الصيفية « أليفيض » الخطوة الاولى في تحوّل البدوي الى الزراعة وابدال ثوبه بثوب العَرَبي الاوضع.

ففي كل سنة ، بعد انسحاب مياه الفرات عن الاراضي المنخفضة القائمة على ضفتيه ، في نهاية شهر ايار او غرّة حزيران ، لا يُطلب من أعرُبينا سوى ان يُودع طبقة الطين الغليظة الراسبة في المنخفضات بذور النبتات المختلفة. فيرتفع منها بسرعة مدهشة ، وبدون عناية ، وبكميات غزيرة ، البطيخ الاحمر والاصفر والخضار العجيبة الحجم واللذيذة الطعم.

واماً الذرة البيضاء والصفراء والسمسم فتُرشّ بذورها على سطح الطين الندي ، ثم يرتّى بالاغنام وتُدفع على وجهه فتغرس بقوائمها الصغيرة البذور المطشوشة ، واذا بالطين بعد غفلةٍ يكتسي بالحقول النَضرة.

ومما تقدّم يتبين للقارئ ان زراعة الفيض تقوم بلا حراثة ولا عناء.

٢ً ــ ثم كانت الخطوة الثانية باتباع طريقة المزروعات الشتوية « السَيل » التي ترتوي من مياه الامطار : فعند منتهى الوديان المنحدرة من البادية الى وادي الفرات تُشقّ الارض البعيدة عن النهر سطحياً بالمحراث الذي عهده ابونا آدم ، وتزرع بها الحنطة والشعير . ويكفي حلول شتاء ممطر وبعض الغيث في فصل الربيع لانتاج اغلال وفيرة في سني الاقبال.

٣ً ــ واخيراً عندما بدأ العَرَبي يحسّ بفوائد التربة المغذية عمد الى زراعة السَقي الشاقة متشبهاً باهل الحضر الذين بجواره.

وتُسقى هذه المزروعات من مياه الفرات التي تُرفع الى مستوى الاراضي بواسطة « بَكَرات » او « غَرَاريف » تديرها الدواب و«البَكَرَة» اقلّ كلفة من الغَرّاف واكثر شيوعاً رغم ما يستلزم ادارتها من المشقّة لانها تُنهك قوى الدابة والعامل اللذين يديرانها جنباً لجنب . و« البكرة » تروي مساحة ٤٠ الى ٥٠ دونماً من الارض . ولكنها اذا دام عملها ليلاً نهاراً بواسطة تناوب الدوابّ والعَتَلة زادت هذه المساحة الى المثل . وفي الغالب تشاد هذه البكرة مزدوجةً فتسمى « كَرْدًا ».

هذا فيما يتعلق بمزروعات السقي على ضفاف الفرات حيث يسهل العمل

ويخفّ الجهد كلّما ارتفعت مياه النهر ، ويكثر العناء كلّما تناقص مستواها .

واما على نهر الخابور ــ ذي المجرى المُنتظم ــ فتُقام النواعير الصغيرة الحجم المدعوة « دولاباً » (جمعها دواليب) تديرها قوة المياه المندفعة ولكن اكثر الفلاحين هناك يعمدون الى البكرة وتحمل مشاقها المضنية نظرًا لكلفة اشادة النواعير .

وما كاد العَرَبي يتعاطى زراعة السقي ، ويتقن تنظيم سواقي الري حتى سمّي « شاوياً » (جمعها شَوَايا وشُويّان) وهذا الاسم يعرف اهل تلك المنطقة من انواع التحقير .

وهكذا اصبحت مزروعات الزور الى يومنا هذا على نوعين :

ا ــ المزروعات الشتوية من شعير وحنطة : منها الزراعة بواسطة السقي الشاق ، ومنها الزراعة بطريق السيل كما يجري في البلاد الحورانية .

ب ــ المزروعات الصيفية من الخضار والفاكهة والذرة والسُمُم . منها ما يسقى ايضاً ، وهذا شاق للغاية ، نظرًا لانخفاض مياه الفرات في الصيف لأدنى درجة ؛ ومنها الفيض يتعهدها خصب طين الفرات الذي يرسب في الاراضي المنخفضة .

* * *

ولما انتهج العَرَبي تعاطي الزراعة ــ وهي الخطوة الاولى نحو الاستكان ــ اضطرّ لاخضاع معيشته لاحوال جديدة يكيفها فصلا الصيف والشتاء بمتلزماتهما .

فعند حلول الصيف ــ وهو فصل « القيظ » عندهم ــ يطوي العَرَبي بيت الشعر . فيقيم الرئيس والغني تحت « البياط » ، وهو دور موقتة مركبة من قوائم خشبية تكسوها اغصان الطرفا والدوس والنصاع ويختلف حجمها حسب منزلة وثروة صاحب الدار . ويستظلّ الفقير « بعَرْزَالة » وضيعة من الاحطاب ، او بحيطان من الطين يُغطّي سقفها بالاغصان والاعشاب .

ويقضي العَرَبي في قراه المنتشرة على ضفاف الانهر ايّام القيظ من شهر ايّار الى كانون الاول ، فيكرس اوقاته لحصاد وجمع مزروعاته الشتوية (ايّار - وحزيران) ثم يدأب على المزروعات الصيفية السقي (حزيران الى ايلول) واخيرًا يُهيّئ

اراضيه للموسم الشتوي المقبل (تشرين الاول والثاني) فيغمر الاراضي الجافة بالمياه ويعمل على حرثها وبذرها وتقطيعها مصاطب متسعةً الى جانب سواقي الري الممتدة الى البكرات .

ويعنى في هذه البرهة ببيع محصولاته من نتاج الارض والمواشي ليسدد بعض ديونه للمرابين ، ويؤدي الاموال الاميرية . فاذا تبقى لديه شيء من المال اخذ احتياجه من الملبوس ، وزاد عدد ماشيته ، او اشترى حصة فرس كريم او تزوج . . . ولكنه لا يحتفظ ، على كل ، بشيء من النقد لديه .

* * *

بعد هطول الامطار وظهور الكلأ في البادية يقوم العَرَبي الى سياطه وعرزالته فيهدمها ، تاركاً منها القوائم بوضعها . ثم يحمل بيت الشعر التقليدي ويتوجه الى البادية بطروشه التي قضت الصيف بقربه تقتات من تبن الحقول المحصودة ومن المراعي القليلة الواقعة ضمن « حاوي » الفرات اي واديه .

ويستعيد العَرَبي في فصل الشتاء سالف حياته البدوية . الّا انه لا يبتعد كثيراً عن مواقع سكنه لفقدان وسائل النقل من الابل ، واحترازاً من الطوارئ وغزوات البدو .

واما افراد العشيرة الفقراء والمأجورون (وهم غرباء عن العشيرة) المكلفون رعاية المزروعات فيلبثون في القرية حيث يقطنون اوكاراً تُدعى « دُبدَابَة » وهي كناية عن حفرة في قاع الارض يقيها من الامطار سقف من الاخشاب والتراب الكثيف يرتفع قليلاً عن سطح الارض ، ولا يُميَّز عن الجوار الّا بصعوبة .

* * *

تبيَّن للقارئ مما تقدَّم ان السائح على ضفاف الانهر الزورية لا يجد قُرىً بالشكل المألوف لدينا : لا من بيوت مبنية من الحجر واللبن ، ولا من بساتين اشجار مثمرة تحيط بها او كروم عنب ولا ولا . . . بل يرى منازل وقتية تجدَّد منذ مئات السنين . فاذا ما استحسنت العشيرة لسبب ما ترك مخيمها لا يبقى وراءها سوى رماد المواقد وبعض الحيطان من طين لا قيمة لها .

وليس ملكيتهم للاراضي المتصلة اليهم في اغلب الاوقات عن طريق التصرّف

مما يوجب استبقاء هؤلاء العرب وربطهم بها اذا شعروا بخطر يحدق بمصالح العشيرة الحيوية .

ان هذا التثبّت المؤلم من تعلق العرب الضئيل بالارض يفسح امامنا المجال لاستنتاج مبلغ التأثيرات السيئة التي يمكن ان تعترض نجاح مهمة اسكان تلك العشائر ما لم يُتّخذ لهذه الغاية تدابير حكيمة بصورة تدريجية تتلاءم مع عاداتها ودرجة تطوّرها نحو التحضّر . فما دام العَرَبي لم يبنِ له بيتاً ثابتاً يتمتع به بقسط اوفر من الرفاه ولم يُقدم على اعمال زراعية كغرس الاشجار والكروم تكون ابقى من تحديش التربة بالمحراث ، فهو سيظلّ اقرب الى البداوة منه الى التحضّر .

ولهذا السبب نجد اهالي الزور يطلقون اسم « أَهل الوَبَر » على جميع العشائر من العربان الرُّحّل والعَرَب النصف الرُّحّل بينما زعماؤهم يعتبرون كلمة « أَهل الحَجَر » خاصة باهل المدن والبلدان العامرة فقط .

خليل جبارة